الأدب الإسلامي

بين العام والخاص

بقلم: د. وليد قصّاب

يتكون هذا المصطلح -كما هو ظاهر- من كلمتين توحيان بالعام والخاص، فهو«أدب» وهو «إسلامي».

إن وصف «الأدب» عام يشترك فيه ماكان إسلاميا وماكان غير ذلك، مثلما تشترك مصطلحات لا حصر لها كالفلسفة، والاقتصاد، والهندسة، والاجتماع، وغيرها في خصائص عامة، ثم يتميز كل منها بسمات معينة؛ فهناك الفلسفة المثالية، والفلسفة الوضعية، والفلسفة الواقعية، والفلسفة الإسلامية...إلخ

وينطبق على أي أدب ما ينطبق على غيره من المسميات من حيث التقاؤه مع آداب الأمم والشعوب كافة في خصائص عامة تجعله يحمل هذا الاسم، ثم يفترق عنها بسمات خاصة: دينية، أو إيديولوجية، أو فنية، أو زمانية، أومكانية، أو غيرها، فتجعله هذه السمات يحمل ملامحه المميزة، فيسمى بالأدب الإسلامي، أو اليهودي، أو الشيوعي، أو الوجودي، أو الرمزي، أو الواقعي، أو القديم، أو الحديث، أو المصري،أو الأندلسي، أو ماشاكل ذلك، بحسب الوجهة التي يُنْظَر منها إليه.

الأدب بمفهومه العام:

لسنا -بطبيعة الحال-في موطن تعريف الأدب أو بيان خصائصه التي تميزه من ضروب القول الأخرى؛ فهذا من أبجديات الدرس النقدي الذي لا يخفى على من شدا قدراً من العلم،وإن وصف نص ما من نصوص الكلام بأنه «أدب» يعني-ضمنا-أنه استوفى مجموعة من الخصائص الجمالية، والشروط الفنية، والقيم الأسلوبية التعبيرية التي لا يسمى الكلام أدبا إلا بها، وهي تميزه من القول العادي،أو الكلام العلمي، وتمنحه جواز مرور إلى مدينة «الأدب».

ويمكن بشيء من الاختصار والتبسيط في القول أن نجمل أبرز هذه الخصائص العامة التي تشترك فيها آداب الناس جميعا في ثلاث هي:

١- التجربة الشعورية،أو الانفعال العاطفي.

٢- تعبير جمالي متألق يقدم هذه التجربة ويعبر بها.

٣- قواعد وأصول فنية مرعية في كل جنس من أجناس الأدب التي يريد الكاتب أن ينشئ القول فيها..

قال سيد قطب في تعريف الأدب: «إنه التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية»[١].

وقال محمد مندور:«إن الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية»[٢].

علي الطنطاوي

إن كل كلام استوفى هذه الخصائص الفنية الجمالية هو أدب مهما كان المضمون الذي يقوله، أو الفكر الذي يعبر عنه، أو التجربة التي يقدمها..

ويستوي-من ثم-في امتلاك ناصية هذه الموهبة مئات بل آلاف من الأدباء من ذوي المشارب والمنازع الفكرية والفنية، من عرب وعجم، وقدماء ومحدثين، ومسلمين ونصارى ويهود ومجوس.

إن اللغة، أو العقيدة، أو الجنس، أو الزمان، أو المكان،أو غير ذلك من الاختلافات الكثيرة لاتنفي عن منشئ ما صفة«الأدبية»مادام يتمتع بالموهبة الفنية التي تمثلها تلك الشروط الشكلية التي تحدثنا عنها.

إن كلا من امرئ القيس، وحسان ابن ثابت، وأبي العتاهية، وأبي نواس، والمتنبي، وابن سكّرة، وعمر بهاءالدين الأميري، ونزار قباني، ونجيب محفوظ، ونجيب الكيلاني، وشوقي، وإبراهيم ناجي، وعلي الطنطاوي، وإحسان عبد القدوس، ومحمد إقبال، ولوركا، وألبرتومورافيا، وجان بول سارتر، ومحمد عاكف، والآلاف غيرهم هم أدباء.

وبدهي أن «أدبية» هؤلاء، أو درجة «الفنية» عندهم ليست واحدة، ففيهم المجيد، وفيهم المتوسط، وفيهم الضعيف، إلا أن هؤلاء جميعا يمتلكون قدرا من موهبة القول، وجمالية الكلام، والعلم بأصول الأدب، أو طرائق إنشائه، تبيح منحهم صفة «الأدبية» مهما كانت درجتها،ومهما تفاوت حظها بينهم.

الأدب بمفهومه الخاص:

ذلك هو العام المشترك بين الآداب جميعها، وهو بدهي معروف، لاحظ لنا فيه إلا التذكير به.

وأما الخاص فهو بدهي معروف كذلك.إن وصف أي أدب بصفة ما هو تخصيص له،وقد يكون هذا الوصف -كما ذكرنا قبل قليل- فكريا، أو فنيا، أو لغويا، أو غير ذلك.

ومن الواضح أن وسم الأدب بأنه«إسلامي» هو وسم عقدي فكري، وهو كذلك من الشائع المعروف، ولا يكاد يتجرد منه أدب من آداب الأمم والشعوب كافة، في القديم والحديث.

إن العقائد والفلسفات الكبرى جميعها«أفرزت آدابا، وانطلقت من قيم معينة،فسميت آدابها بأسمائها. وتمتلئ ساحة الآداب المعاصرة اليوم بأسماء لها دلالاتها وعلاقاتها بتصورات فلسفية متباينة: الأدب الوجودي، الأدب الاشتراكي أو الماركسي أو الواقعي الاشتراكي، الأدب العبثي، أدب اللامعقول، الأدب التبشيري أو التنصيري أو المسيحي، الأدب الصهيوني، حتى الرومانسية، والكلاسيكية، والرمزية، والفرويدية، والطبيعية وغيرها، كلها نبتت في«أرض فلسفية» معينة، فلا نرى لونا من ألوان الأدب في أوروبا مثلا إلا وارتبط تنظيره بفيلسوف من الفلاسفة المحدثين أو القدامى..»[٣].

إن وصف الأدب بأنه «إسلامي» هو إذن حديث عن القيم الفكرية،حديث عن الرؤية التي يقدمها، والفلسفة التي يطرحها، إنه وصف لتصوره العقدي عن الكون والإنسان والحياة والوجود، إنه طرح خاص لمشكلات الإنسان وقضاياه الكبرى وعلاقاته المختلفة بهذا الكون الذي وجد فيه من وجهة نظر الإسلام.

وقد يلتقي في هذا الجانب المضموني-في القليل أو الكثير- مع تصورات ورؤى فكرية تطرحها الآداب الأخرى،ولكن صورته الكلية هي صورة التفرد والتميز، صورة الخصوصية الإسلامية،تماما مثلما هو حال كل دين أو عقيدة أو فلسفة.إن الخصوصية الثقافية الفكرية هي من علامات كل أدب.

❖ ❖ ❖

ثنائية الشكل والمضمون

إن الشكل الأدبي هو-على وجه الإجمال-من العام المشترك كما ذكرنا،وأما المضمون فهو من الخاص المميز للآداب

وإن تقسيم الأدب إلى شكل ومضمون هو-كما نعرف-من قبيل التبسيط والاستقصاء؛ إذ إن الذي لاشك فيه أن هذين العنصرين الأساسين في أي كلام مما لايمكن فصله؛ فالأدب الحقيقي«وحدة متماسكة من الفكر والفن»[٤]إنهما متداخلان - كما يقول ابن رشيق- تداخل الروح بالجسد، وكما عبّر عن ذلك فيما بعد فلوبير الفرنسي بقوله:«لا شكل بدون فكرة، ولا فكرة مجردة عن الشكل».

إن الشكل والمضمون، أو - كما يعبر عنهما أحيانا - الصورة والمحتوى، أو الصورة والفكرة، أو - كما في تراثنا النقدي - اللفظ والمعنى، هما من التداخل والتفاعل بحيث لا يتخيل أحدهما بمعزل عن الآخر، أو يظهر عنصر منهما إلا ملتبسا بالآخر.

والشكل - في أبسط صوره - هو الصياغة والألفاظ، هو كل ما يتعلق بالصيغ الفنية المختلفة، هو الأسلوب بمعناه العام، الذي يُبرز العمل الأدبي، ويخرجه إلى حيز الوجود، سواء أكان هذا العمل الأدبي شعرا، أم قصة، أم مسرحية، أم مقالة، أم غيرها، بحسب الصيغ الفنية المتعارف عليها في كل جنس.

وإذا قبلنا -بشكل مبدئي، ومن باب التبسيط واستقصاء المسائل- هذه القسمة الثنائية إلى شكل ومضمون، فإن القاسم المشترك بين أدب إسلامي وآداب أخرى ذات توجهات فكرية مختلفة هو عنصر الشكل، إلا في استثناءات يسيرة سنشير إلى بعضها في سياق هذا الكلام. إن كل أدب - مهما كان توجهه - هو فن جمالي شكلي متميز، يستعمل اللغة بطريقة خاصة. إنه فن الكلمة الأنيقة المجنحة، فن استعمال الألفاظ والعبارات استعمالا باهرا، إنه صياغة مادتها الألفاظ[٥].

إن الأدب - بتعبير الشكلانيين- هو استخدام للغة بطرائق غير مألوفة، هو من نوع الكتابة التي تمثل عنفا منظما بحق الكلام الاعتيادي[٦]، إذ هو بهذه التقانات الفنية التي يلجأ إليها - يستطيع الوصول إلى المتلقي والتأثير فيه.

وعندما قال الجاحظ عبارته الذائعة:«إنما الشعر صناعة،

وضرب من النسج، وجنس من التصوير..»[٧] كان يشير إلى هذا الجانب الشكلي العام الذي لا يسمى الكلام أدبا إلا به.

وعندما عقب حسان بن ثابت على عبارة ابنه عبد الرحمن: «لسعني طائر كأنه ملتف في بردتَي حِبرة» بقوله:«قلت والله الشعر..»[٨] لم يكن يعني - بطبيعة الحال - الشعر في معناه الاصطلاحي - ولكنه كان يشير إلى هذه الخصوصية في لغة الشعر.

وكذا عندما عقب عبدالملك بن مروان على قول الراعي النميري:

أخليفة الرحمن إنا معشر
حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا
حق الزكاة منزّلا تنزيلا

بقوله:«ليس هذا شعرا، هذا شرح الإسلام، وقراءة آية...»[٩]، إنما كان يشير كذلك إلى هذه الخصوصية الشكلية التي تميز ما هو كلام شعري أو أدبي مما هو كلام عادي.

ولقد فطن تراثنا الأدبي والنقدي باستمرار، وبشكل متألق لافت للنظر، إلى هذه الخصائص الشكلية الجمالية التي هي من سمات«الأدبية» في الأدب، أو«الشعرية» في الشعر.. حتى إنه - في إطار الشعر نفسه - ميز بين مصطلحين هما: الشعر والنظم، فكان حد الشعر ليس الوزن والقافية وحدهما - على أهميتهما- بل لا بد أن ينضاف إليهما عناصر شكلية كثيرة.

قال - على سبيل المثال - يحيى ابن علي المنجم -:«ليس كل من عقد وزنا بقافية فقد قال شعرا، الشعر أبعد من ذلك مراما، وأعز انتظاما..»[١٠].

وقال ابن رشيق:«قال غير واحد من العلماء: الشعر ما استعمل على المثل السائر، والاستعارة الرائعة، والتشبيه الواقع. وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن...»[١١].

الجاحظ

ونقل ابن رشيق عن العلماء قولهم عن الشعر: إنه لا ينبغي أن يكون خاليا من هذه الحلى، يقصدون ضرب الصنعة، كالتمثيل، والتشبيه، والاستعارة، ووصفوا الشاعر الذي يخلو شعره من هذه الوجوه بأنه يخلي واعتبروا الإخلاء عيبا في الشعر...»[١٢].

❖ ❖ ❖

حيادية الشكل

ذلك - إذن - هو الجانب المشترك بين الآداب جميعها، مهما كان اتجاهها الفكري، وهو الشكل الفني. فالأشكال الفنية - بصورة عامة - هي من الأمور المحايدة، التي لا تحدد اتجاها عقديا أو إيديولوجيا لأدب ما، إلا في حالات يسيرة، ومن ثم، فهذه الأشكال الفنية هي من القاسم المشترك الأعظم في ألوان الأدب جميعا.

يقول الدكتور نجيب الكيلاني- رحمه الله:«الإسلام لم يضع لنا أشكالا فنية معينة، ولم يربطنا ببناء فني خاص نسير على منواله، لأن القرآن ليس كتابا في علم (الاستطيقا) -الجمال- وإنما ارتباطنا بالإسلام هو ارتباط بالمثل والمبادئ التي أنزلها الله - سبحانه- وجعلها مصدرا نصدر عنه، ونتمثل معانيه، ثم نحاول - جادين- الحفاظ على الأشكال الفنية، والمساهمة في إنمائها واكتمالها وتطويرها مثل غيرنا من أدباء العالم..»[١٣].

ويقول محمد قطب:«الفن الإسلامي ليس مقيدا بطرائق تعبيرية معينة.. فله أن يختار من الموضوعات والطرائق ما يشاء، ولكنه مقيد بقيد واحد أن ينبثق من التصور الإسلامي للوجود الكبير، أو - على الأقل - ألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والوجود..»[١٤].

ولكن هناك من يرى أن الأشكال الفنية لا يصح أن توسم بالحياد، بل هي كالمضامين ذات انتماءات فكرية معينة.

يقول محمد حسن بريغش -رحمه الله :«إن المفاهيم الجمالية والأطر الفنية، والصيغ التعبيرية، التي يراها بعضهم ملكة مشتركة حيادية، هي عند الآخرين صورة مرتبطة بالتصور الذي يتمثل بالمضمون أيضا، وإنه في الأدب خاصة، والفنون عامة - لا يوجد حياد في الشكل أو المضمون. فلو أخذنا المدارس الفنية الحديثة الغربية لرأينا أنها بدأت بالتخلي عن الموضوع - المضمون- بدءا من عدم الاكتراث به في المدرسة الانطباعية، وانتهاء بالاستغناء عنه تماما في المدرسة التجريدية..»[١٥].

وفي رأينا أن هذا اعتساف في الرأي، وحجر على واسع، وهذا هو القرآن الكريم نفسه - قمة البلاغة الفنية، والإعجاز البياني- إنما نزل بطرائق العرب، وأساليبهم في التعبير، صاغ معانيه العظيمة، وقيمه الرفيعة السامية، وتشريعاته وأحكامه جميعا على حسب ما عرفه القوم من الصيغ والطرائق والأساليب.

وهذا الدين الجديد يدعو إلى قيم جديدة، يأتي لينسف الجاهلية من جذورها، ويجتث ما كانت تؤمن به من أفكار ومعتقدات، وعندما تمثل الشعراء قيمه ومبادئه، وعكسوها في أشعارهم، لم يجدوا حرجا أن يستعملوا منهج القصيدة الجاهلية وطرائقها في التعبير والأداء، إذ آمنوا أن الأشكال الفنية هي أوعية يملؤها الأديب بالمادة التي يشاء.

❖ ❖ ❖

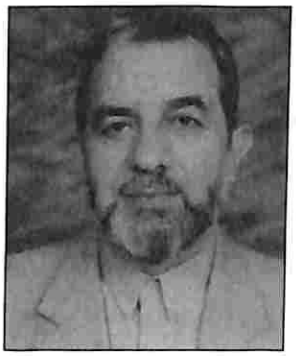

محمد حسن بريغش

استثناءات شكلية

وإنما قلنا: إن الأشكال الفنية هي محايدة بشكل عام، ولم نرسل القول في ذلك إرسالا مطلقا، إذ تبقى - في إطار هذا المشترك العام بين الآداب جميعها، وهو الشكل الفني - استثناءات يسيرة، يمكن أن تمثل بعض الخصوصيات الشكلية للأدب الإسلامي.

وليس المقام هاهنا مقام تفصيل في هذه الاستثناءات، ولذلك نشير في عجالة إلى أبرزها، من قبيل التمثيل للظاهرة:

١ - استعمال الفصحى:

إن اللغة الفصيحة هي لغة الأدب الإسلامي الذي يكتب بالعربية، لما لهذه اللغة - من الناحية الشرعية- من قداسة ومنزلة.

إن العربية - الفصيحة - هي وعاء الإسلام، وهي - في حد ذاتها- دين. يقول ابن تيمية:«وأيضا، فإن نفس العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب...»[١٦].

بل إن بعض الدارسين - من قبيل هذا الإحساس الحارّ بمنزلة العربية، وارتباطها الوثيق بالإسلام- لم يتصور أدبا إسلاميا مكتوبا بغير العربية، ورأى أن الأدب الصالح المكتوب بغير العربية لا يسمى أدبا إسلاميا إلا من حيث المضمون، لأن الأدب الإسلامي شكل ومضمون[١٧].

ولكن هذه الحماسة المحمودة للغة القرآن الكريم حملت - فيما نرى- إلى غلو في القول، ذلك أن مفهوم الشكل، الذي هو شرط في الأدب الإسلامي، وفي غيره من الآداب، لا ينصرف إلى نوعية الألفاظ، أو جنسيتها، أو هويتها الجغرافية أو العرقية، ولكنه ينصرف إلى طريقة تشكيلها - في أي لغة كانت - على نسق جمالي معين.

إن أي كلام مكتوب بأي لغة هو أدب ما دام مصوغا - كما ذكرنا - صياغة فنية باهرة، ثم يكون المضمون تحديدا لهوية هذا الأدب؛ فهو إسلامي، أو يهودي، أو نصراني، أو ماركسي، أو وجودي، بحسب مضمونه الفكري فحسب.

وهذا الأدب - في إطار التصور الإسلامي - قد يكتب بالعربية أو بغيرها من اللغات الأخرى.

إن اللغة العربية الفصيحة إذن هي لغة الأدب الإسلامي الذي يكتب بالعربية، وليست العاميات أو اللهجات المحلية مهما كان نوعها أو انتماؤها.

والأدب الإسلامي - على عدم إكراهه أحدا على الكتابة بالشكل الذي يريد - لا يعتد بتجارب الأدب المكتوبة بالعاميات، وهو يرى في العامية خطرا يهدد الفصحى، بل يعين على توهين عراها، ويضعف من سلطانها. وهو يرى فيها - من الناحية الفنية - عجزا أو عدم قدرة على الارتقاء إلى مستوى الفصحى، كما يرى فيها محلية لا تعين على ذيوع الأدب وانتشاره، كما يرى فيها وسيلة تشتيت لهذه الأمة، على حين أن العربية الفصيحة هي رباط جامع، ووثاق موحد.

٢ - وفي إطار الحرص على اللغة العربية الفصحى، وعدها من السمات الشكلية للأدب الإسلامي، النفرة من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية، والدعوة إلى احترام قواعد اللغة وضبطها، والمحافظة على سلامتها من الانتهاك والشذوذ والركاكة.

وإن هناك لفرقا كبيرا بين التجديد والابتداع في اللغة، وتفجيرها لاستخراج دلالات وصيغ وتعبيرات طريفة، وبين الدعوة إلى تدمير القواعد، والاستهانة بها، أو التساهل في شأنها.

إن الأدباء هم - باستمرار- أمراء اللغة، يجدّدون ويبدعون ويتفنون في التعامل معها، ولكنهم -في الوقت نفسه- حراسها وحماتها والذائدون عن حياضها.

يقول إليوت:«إن أقصى نجاح يمكن أن يبلغه الشاعر هو أن يوصل لغته للأجيال المقبلة وهي أكثر نضجا، وأكثر نصيبا من الجمال والدقة مما كانت عليه قبل أن يكتب بها...»[١٨].

الأدباء أمراء اللغة وحماتها، ولذلك فإن واجبهم أن يتقنوا قواعدها، ويعرفوا أصولها، ويتعمقوا في معرفة أسرارها ودقائقها، وأن يجتنبوا الخطأ واللحن فيها، وأن يروا في ذلك غضاضة، أي غضاضة!

إن الحداثة الهجينة البعيدة عن منهج الأدب الإسلامي تجرّئ أدباء اليوم على الخطأ في اللغة العربية، والاستهانة بقواعدها.

يقول أحد الحداثيين:«الخطوة الأولى للخروج من أزمة التعبير هي الخروج من حكم اللغويين...»[١٩].

ويقول في موضع آخر:«يتصاعد نفوذ اللغويين، وتبعا لذلك يشتد حصارهم لمنعها من الانطلاق في دروب التطور...»[٢٠].

وهذا الحداثي يدعو إلى تغيير قواعد اللغة العربية، ويقترح الكتابة بالنحو الساكن، ومعاملة المثنى وجمع المذكر السالم دائما بالياء، وهو يخرج هذه الدعوة إلى حيز التطبيق العملي، فيكتب أمثال هذه العبارات: «يستلزم ذهنٌ مستريحٌ قانعٌ بما لديه» و«اتخذوا لهم مذهبٌ كلاميٌ» و«أحدث تغييرٌ عميقٌ...».

ويكتب:«يوفرها له مندوبي الصحف» و«باثنا عشر مليون قتيل» و«الأمويين متهمين» و«كان الأمويين أنفسهم قد اتخذوا» و«أخذت الفرقتين السياسيتين بالخوض» و«لأن حقيهما منفصلين في العادة» و«أنكر الأزهريين» والكثير غيرها [٢١].

إن احترام قواعد اللغة العربية من الدين. روي أن كاتب أبي موسى كتب لسيدنا عمر رضي الله عنه: «من أبو موسى» فكتب إليه عمر: «إذا أتاك كتابي هذا فاجلده سوطا، واعزله عن عمله»[٢٢]. وكان عمر رضي الله عنه إذا سمع رجلا

يخطئ قبّح عليه،وإذا أصابه يلحن ضربه بالدرة..[٢٣].

وكان مسلمة بن عبد الملك يقول: «اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه..»[٢٤].

وكان عبد الملك يقول:«اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس..»[٢٥].

٣-إيثار الوضوح:

والأدب الإسلامي يؤثر -في رأينا،من حيث الشكل-الوضوح، الوضوح من غير سطحية، ولا ابتذال، من غير أن يتنافى ذلك مع استعمال أشكال التعبير التخييلية والمجازية المختلفة، والرموز الموحية، والتلميح المفيد، والأسطورة المعبرة[٢٦].

والوضوح المدعو إليه في الأدب الإسلامي لا يعني التعبير المباشر، والوعظ المصطنع والابتعاد عن العمق والغوص في أحشاء اللغة والأفكار، وابتكار الجديد الطريف منها، ولكن الوضوح معناه التواصل مع المتلقي، وعدم احتقاره أو إهماله، أو تجهيله، فهذا المتلقي ركن أساس في العملية الإبداعية، ولا تتحقق بدونه رسالة الأدب الإسلامي في التأثير والإقناع.

وفي إطار من هذا الحرص على الوضوح الفني الإيجابي الذي تحدَّثنا عنه نحسب - في رأينا - أن الأدب الإسلامي ينفر من الصور البعيدة، والتخييل المغرق، والإفراط والغلو ومجاوزة القصد في التعبير.

يقول المبرد:«الشعر ما قارب

فيه القائل إذا شبَّه. وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه بفطنته على ما يخفى على غيره، وساقه برصف قوي، واختصار قريب، وعدل فيه عن الإفراط..»[٢٧].

وقال المبرد في تهجين شعر المحدثين:«في المحدثين إسراف، وتجاوز، وغلو، وخروج على المقدار...»[٢٨].

ويقول الآمدي:«كلٌّ ما دنا من المعاني من الحقائق كان ألوط بالنفس، وأحلى في السمع، وأولى بالاستجادة...»[٢٩].

وفي إطار من هذا الحرص على وضوح الأدب، وقدرته على أداء رسالته، ينفر الأدب الإسلامي من الرموز المبهمة، والمعاني المستغلقة، والتهويمات الجامحة الجانحة، ومن التجارب العبثية وتجارب اللاوعي واللاشعور التي تعتمد الضبابية في التعبير، والطلسمة والغموض في الأداء، وتجنح إلى الوهم والتعمية، وتحتقر الواقع والشعور والحس والعقل.

فمن شَرَك الفكر الغربي، ومن مصيدة الحداثة الهجينة،

ومن ترهات مدارس غربية معينة: كالرمزية، والسريالية، والعبثية، وغيرها، سرت إلى أدبنا سموم الغموض، حتى غدت هذه اللوثة من سمات الأدب الحداثي، وعُد الوضوح من سمات الأدب الرجعي المتخلف.

إن الوضوح والبيان من سمات ثقافتنا العربية الإسلامية الأصيلة، وهما من سمات الحاجة إلى تطوير المجتمع العربي وتنويره وتثويره، وعقلنة الجماهير العربية وتغييرها المنشود.

إن تحقيق مثل هذه المتطلبات لا يتم عن طريق الطلسمة والتغميض، والأفكار المهوّشة الغائمة التي لا تحمل مدلولات واضحة محددة، كما هو حاصل في كثير من نماذج الأدب الحديث.

٤ - **الإمتاع:**

من عناصر الشكل المهمة في الأدب الإسلامي - في رأينا - عنصر الإمتاع الذي أصبحت تفرّط فيه بعض الاتجاهات الأدبية الحديثة، عندما افتقد الأدب بساطته وعفويته وتلقائيته، وآثر الغموض والتعقيد، وسمح للنزعة العلمية أن تحكم قبضتها بقوة عليه، وتوجهه بحسب نظرياتها وأفكارها.

إن الأدب الإسلامي ممتع ومفيد في وقت واحد معا، وما يجده المتلقي من متعة في الأدب هو الذي يجذبه إليه، ويحبّبه به، بل إن هذه المتعة التي يهبها الأدب لمتلقيه هي التي تجعله عميق التأثير فيه، نفّاذا إلى طوايا نفسه وأعماق فؤاده، حتى يبدو كالسّحر الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «إن من البيان لسحرا»[٣٠].

والأدب ممتع ليس بسبب أهميته الإنسانية، أو بسبب صلته الوطيدة بالحياة فحسب[٣١]، إن هذا - من غير شك - سبب من أسباب ما نجده في الأدب من متعة وفائدة، فنحن «نحب أن نرى الحياة منقولة إلينا، نحب أن نجلس في مكاننا لنشاهد الحياة تمر بنا جزئياتها في سلسلة متصلة الحلقات..»[٣٢] ولكن الأدب - زيادة على المتعة والفائدة - فيما يقدمه لنا من التجارب الإنسانية، والخبرة البشرية - ممتع بأسلوبه في التعبير، ولغته الأنيقة الرشيقة التي يختارها.

إن لغة الأدب - كلما كانت قريبة من الناس، لصيقة بنفوسهم، سهلة بعيدة عن التكلف والحذلقة - كانت أكثر إمتاعا لهم.

ولقد أشار معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - مرة إلى الإمتاع في الشعر، روي أن معاوية لما حُمل إليه هدبة بن خشرم - وكان قتل زيادة ابن زيد - سأله عن ذلك، فقال له هدبة: أتحب أن يكون الجواب شعرا أم نثرا ؟ قال معاوية: بل شعرا، فإنه أمتع..» وفي رواية: «أنفع»[٣٣].

إن على الأديب الإسلامي أن يعنى بأسلوبه التعبيري، وأن يحسن انتقاء الألفاظ والعبارات التي تتسم بالجمال والخلابة والطرافة، والتي تتسم بالإدهاش، وأن يبتعد عن التعبير الجاف، والألفاظ الخشنة الوعرة، وأن يكون قريب المأتى، سهل المأخذ، يقول ما يسرع وصوله إلى القلب من غير غموض ولا تعمية.

وقد تحدث النقد العربي عن أدب سهل ممتنع، قريب عصي، تسمعه فتظن أنك تحسن مثله، فإذا ما حاولت وجدته أبعد من العيّوق، إنه الأدب الممتع الذي تفهمه العامة، وترضاه الخاصة، لأنه جمع بين البساطة والفنية.

خلاصة القول

نخلص مما تقدم من كلام على الشكل الفني إلى أن الأدب الإسلامي لا ينبغي أن يتعصب لفن أدبي معين، أو لشكل فني دون آخر، ذلك أن الأشكال الفنية هو أوعية للأفكار والمضامين وهي بالتالي:

١ - محايدة إلى حد كبير.

٢ - من الأمور المتطورة المتغيرة.

٣ - مرتبطة بالذوق العام والخاص.

٤ - مرتبطة بشخصية المبدع.

يقول الدكتور نجيب الكيلاني - رحمه الله -: «إن الشكل الفني ميراث وتراث، وإنه بطبيعته متغير، وإن مجال العمل فيه يلتصق بإبداع المبدعين، أكثر من التصاقه بآراء المؤرخين والنقاد، وهو قضية قبول بين المبدع والمتلقي بالدرجة الأولى.. ولا شك أن حرص الإسلاميين على المضمون الفكري واطمئنانهم له، سوف يجعلهم أكثر ثقة في ارتياد التجارب الإبداعية الجديدة في كل لون من ألوان الأدب

شعرا أو نثرا، وبذلك ينطلق الأديب الإسلامي في مجال الصور الفنية دون خوف أو عقد، ويدرك يقينا معنى الحرية الصحيحة في الإبداع تحت مظلة الفكر السليم...»[٣٤].

ولو عدنا إلى ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال ومواقف من الشعر والشعراء مثلا، لوجدناها تركز - في غالبيتها العظمى- على مضمون الكلام ومادته، وهي تتوقف طويلا عند ما فيه من القيم والأفكار، وما يطرحه من القضايا، ويروج له من التصورات، ونحسب أن وراء ذلك مجموعة من الدلالات توقفنا عندها بالتفصيل في كتابنا«النظرة النبوية في نقد الشعر»[٣٥]، ولكن يهمنا فيها في هذا المقام ما ذكرناه ثَمَّ من أن الأداة الفنية - عند الحديث عن نظرية إسلامية في الفن الأدبي لا تشكل عقبة ما، ولا تحدث إشكالية معينة، فالإسلام لا يلزم الأدباء بأسلوب فني محدد، ولا يقيدهم بطريقة خاصة من طرائق القول وأفانين التعبير، وإنما يترك ذلك للأدباء - في كل زمان ومكان - لإبراز مواهبهم وتفردهم وتمكنهم من نواصي الفن[٣٦].

إن الأداة الفنية قيمة متغيرة متجددة، والمجال فيها رحب للإبداع، وهي خاضعة - في تطورها ونمائها- لما يستجد من الفنون، وما تتفتق عنه القرائح من الطرائق والأساليب، بل قد تكون مرتبطة كذلك بالجنس الأدبي، وطبيعة الأفكار والمضامين التي يسوقها الأدباء، ومن ثم فهي أقرب إلى الديناميكية والتطور والحياد.

وهكذا ينهض الأدب الإسلامي على العام والخاص، أي على الشكل والمضمون معا، وهما جناحاه اللذان لا ينهض - كالطائر - إلا بهما، وإن أي انتقاص من أحدهما، أو إلغاء له على حساب الآخر، يشوه صورة الأدب، يجعله طائرا كسيحا لا يملك إلا جناحا واحدا، ولن يستطيع التحليق به أبدا.

إن الأدب الإسلامي يشبه سوارا جميل الصنعة، متقن الصورة، ولكن جماله جمال حقيقي، وحسنه ليس برقا خلبا، بل هو حسن حقيقي، وبهر صادق، لا زيف فيه ولا تزوير، لأنه سوار مصنوع من الذهب الإبريز، إنه ليس سوارا من حديد، أو نحاس، أو أية مادة رخيصة أخرى، يخلبك بشكله الزاهي، ومظهره الأنيق، فتخدع به، وتنشد إليه، ولكنه ما يلبث أن يبهت ويذهب بريقه.

إن كثيرا من الكلام تروعك فيه طنطنة الألفاظ، وخلابة العبارات، فإذا فتشته - كما يقول ابن قتيبة -: «لم تجد كبير طائل في المعنى». ■

الهوامش:

(١) النقد الأدبي، أصوله ومناهجه:ص٨ (دار الكتب العربية، بيروت).
(٢) الأدب ومذاهبه: ص٨ (دار نهضة مصر).
(٣) مدخل إلى الأدب الإسلامي، د. نجيب الكيلاني، ص٣٩، كتاب الأمة، قطر.
(٤) دراسات في النقد، لألن تيت:ص٩٢، ترجمة د. عبدالرحمن ياغي.
(٥) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه:ص٢٣.
(٦) انظر«نظرية الأدب» لتيري إيغلتون: ص١٣.
(٧) الحيوان: ١٣١/٣.
(٨) ألف باء، للبلوي:ص ٥٨، والحبرة: ثوب من قطن أو كتان مخطط.
(٩) الموشح:ص ٢٤٩.
(١٠) الموشح:ص ٥٤٧.
(١١) العمدة: ١٢٢/١.
(١٢) السابق: ٢٨٥/١.
(١٣) الإسلامية والمذاهب الأدبية: ص٣٨.
(١٤) منهج الفن الإسلامي:ص ٢١.
(١٥) الأدب الإسلامي: أصوله وسماته:ص ١٥.
(١٦) اقتضاء الصراط المستقيم: ص٤٢.
(١٧) انظر ما كتبه د. محمد بن سعد بن حسين، في مجلة الحرس الوطني السعودية عدد رجب - ديسمبر - ١٩٩٦ م، ص٦٦. ويقول د. سعد أبو الرضا:«سوف يظل الأدب الإسلامي إلى ما شاء الله عربي اللسان، رباني المضمون»، انظر كتابه«الأدب الإسلامي: قضية وبناء» ص١٠.
(١٨) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: ص٣٣٨.
(١٩) هادي علوي، كتاب«قضايا وشهادات»، العدد الثالث: حداثة: ٢، ص١١٠.
(٢٠) السابق: ص١٠٦.
(٢١) هادي علوي، قضايا وشهادات (العدد الأول)، ص٢١٧.. وكل صفحة وانظر ما كتبناه عن موقف الحداثة من اللغة العربية في كتابنا«الحداثة في الشعر العربي المعاصر:ص١٨٦-٢٢٠».
(٢٢)، (٢٣) مراتب النحويين: ص ٢٣.
(٢٤)،(٢٥) عيون الأخبار: ١٥٨/٢.
(٢٦) انظر ما كتبناه عن الوضوح والغموض في كتابنا«في الأدب الإسلامي»، ص ١٠٧-١١٥.
(٢٧) الموشح: ص٢٤٣.
(٢٨) الكامل:ص ٤٥٦.
(٢٩) الموازنة: ١٥٧/١.
(٣٠) عون الباري: ٩٦/٦.
(٣١) الأدب وفنونه للدكتور عزالدين إسماعيل: ص٢١.
(٣٢) السابق نفسه.
(٣٣) الكامل: ١٤٥٢، وشرح شواهد المغني: ٢٣٥/٥.
(٣٤) مدخل إلى الأدب الإسلامي: ص٢١.
(٣٥) النظرة النبوية في نقد الشعر: ص٥٦-٥٩.
(٣٦) السابق: ص٥٧.